لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان

(القسم الأول)

د. محمد الشريف قاهر*

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني اليمني الأصل، اللوشي المولد، الفرناطي المنشأ والتكوين الفاسي المدفن، الشهير بلسان الدين بن الخطيب.

ولد في 25 رجب من عام 713هـ- 16 نوفمبر 1313م. بمدينة لوشة (Loja) البعيدة عن غرناطة (Granada) بـ 55 كلمترا، والتي استقر بها جده الأعلى — سعيد، الذي كان قاضيا بها، وخطيبا بمسجدها الجامع، والمعروف بالخطيب، وإليه نسبت الأسرة منذ ذلك الوقت، وكان بقرطبة (Cordoba) يعرفون ببني وزير.[1]

نشأ ابن الخطيب بعاصمة بني الأحمر، غرناطة، على حالة حسنة، مكنوفا بالعناية، إذ كان أبوه عبد الله أحد وزراء الدولة، مكلفا بالتموين وخزائن الطعام، فتلقى تعليمه على أعظم أساتذة العصر، أمثال أبي عبد الله بن عبد المولى العواد، الذي قرأ عليه القرآن الكريم رسما، وحفظا، ثم تجويدا، وأستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي،

---

* عضو المجلس الإسلامي الأعلى وأستاذ بكلية الآداب، جامعة الجزائر.

1. أنظر : المقري، *نفح الطيب*، ج7، ص : 4، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان —بدون تاريخ- وانظر كذلك أزهار الرياض للمقري، ج1، ص: 186 وما بعدها، تحقيق : مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358هـ-1939م بالقاهرة.

الذي يعترف ابن الخطيب بأنه أول من انتفع به، وشيخ النحاة في زمانه الإمام الألبيري أبي عبد الله بن الفخار، أخذ عنه علوم التفسير، والفقه، والعربية، واختص بالإمام أبي زكريا بن هذيل، فأخذ عنه الفلسفة، والطب، وتأدب بالرئيس أبي الحسن علي ابن الجياب، ثم على آخرين كثيرين ممن كانت تزخر بهم عاصمة بني الأحمر، وقد أطنب ابن الخطيب في التنويه بأساتذته وشيوخه في الفصل الذي عقده للتعريف بنفسه، في آخر كتابه، القيم "**الإحاطة في أخبار غرناطة**"، تحت عنوان "**المشيخة**" كما أورد شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني في موسوعته الجامعة، **نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، ترجمة وافية لشيوخه استغرقت ما يزيد عن أربعمائة صفحة.[1]

ابن الخطيب السياسي

كان ابن الخطيب يطمح منذ نعومة أظفاره في الوصول إلى منصب سياسي مرموق في دولة كان أبوه أحد وزرائها، وكان لابد لكل من يرغب في الوصول إلى مكانة عالية في الدولة آن ذاك أن تتوفر فيه صفات أهمها: **الحسب والنسب والعلم والأدب، أما النسب** فليس للإنسان فيه خيارا ومن حسن حظ صاحبنا إن كان منتسبا إلى عائلة عربية يمنية صريحة، عزيزة الجانب، قوية الشكيمة، قدمت إلى الأندلس منذ أيام الفتوح الأولى، فاستوطنت أول أمرها قرطبة، ثم نزحت منها إلى طليطلة (Toledo) ومن هذه الأخيرة هاجرت إلى جنوب الأندلس، فاتخذت مدينة لوشة مستقرا لها، ومنها انتقلت إلى غرناطة. **وأما العلم والأدب**، فمن مكتسبات الشخص بعد الجد والكد، والمثابرة والجلد، إلاّ أن هذا الاكتساب يختلف بين شخص وآخر، فهذا يجد لديه

1. أنظر: المقري، *نفح الطيب*، ج 7، من ص: 116 إلى ص: 408 وج 8 من ص: 4 إلى ص: 116.

الطرق ممهدة، والأسباب متوفرة، وذاك يبدأ من الصفر، فلا مال، ولا جاه، ولا معين، فينطلق الاثنان من مركزين مختلفين، ويشرعان من نقطتين غير متوازيتين، فيصل هذا بأقل صعوبة، ويتوقف ذاك أو يكاد لعدم توفر الفرص له.

فابن الخطيب من النوع الأول، وجد السبل ممهدة، والشروط متكاملة، فبدأ في الطلب بنهم، وأخذ نجمه في الأفق يعلو رويدا رويدا حتى اكتملت ثقافته، وتعددت معارفه، فأصبح كاتبا مرموقا، وشاعرا مشهورا، ومؤلفا كبيرا، ومشاركا في جميع ما كان معروفا بين علماء زمانه، إن لم يكون متفوقا عليهم، بفضل ذكائه الحاد، وجده المتواصل، وتواضعه المحبوب، وتهافته على اكتساب المعارف، فأكسب بذلك إعجاب أساتذته ومربيه، واحترام أنداده وزملائه، فبدأ في الصعود درجة فدرجة، فانخرط أول أمره في سلك كتاب ديوان الإنشاء تحت رئاسة أستاذه أبي الحسن على بن الجياب، إمام البلاغة والكتابة على أيامه، يعمل مساعدا له، وأمينا لسره، حتى إذا جاء عام 749هـ. توفى أستاذه بمرض الطاعون الذي عم الأندلس والمغرب العربي، وذهب ضحيته جلة من العلماء والأدباء، تولى ابن الخطيب منصب أستاذه في الوزارة الذي رشحه إليه قبل وفاته، وأوصى به إليه لدى سلطانه **أبى الحجاج يوسف النصرى**، سابع ملوك بني الأحمر.

وابتداء من هذا التاريخ (749هـ) ألقت الدولة النصرية بمقاليدها على كاهل ابن الخطيب، وهو دون الأربعين من عمره، فتحملها بصبر وثبات، فكان الوزير، والسفير والمؤلف، والكاتب، والشاعر، فلا تكاد تمر عليه سنة إلا ويخرج للنور عددا من القصائد والمؤلفات، في التاريخ، والأدب، والأصول، والطب، والموسيقى.

وفي عام 755هـ قتل السلطان أبو الحجاج يوم عيد الفطر أثناء صلاة العيد، وبويع على أثر هذا الحدث ابنه **"محمد الخامس" الملقب بالغني بالله** – ثامن ملوك بني الأحمر– وعمره لا يتجاوز خمسة عشر ربيعا، تولى ابن الخطيب أمر البيعة، فكان للغنى بالله الاسم والشكل، ولابن الخطيب التنفيذ والسلطة، فأصبح له كما كان لأبيه الوزير، والأمين، والسفير.

ابن الخطيب بالمغرب العربي

جاء ابن الخطيب إلى المغرب العربي أربع مرات: مرتين سفيرا ورئيس وفد، ومرتين لاجئا سياسيا.

أ. ففي عام 752هـ على اثر وفاة السلطان أبى الحسن المريني، الذي كانت له مواقف مشرفة في نصرة الأندلس وإعانتها، وتولية ابنه الثائر عليه أبى عنان، إمارة فاس، بعث أبو الحجاج يوسف النصري، وفد تعزية وتهنئة إلى المغرب، برئاسة وزيره، وأمين سره، لسان الدين ابن الخطيب.

ب. وفي عام 755هـ، على اثر مقتل السلطان أبى الحجاج، وتولية ابنه محمد الغنى بالله، أرسل السلطان الجديد وفدا إلى المغرب طلبا للنجدة والمساعدة، وتجديدا لعهد الصداقة والمودة بين العدوتين : الأندلس والمغرب، وكانت رئاسة الوفد لابن الخطيب أيضا.

ج. وفي اليوم السادس من محرم عام 761هـ عاد ابن الخطيب إلى المغرب من جديد، ولكنه في هذه المرة ليس سفيرا ولا رئيس وفد، وإنما جاء لاجئا سياسيا، صحبة سلطانه محمد الغنى بالله، الذي قامت ذد حكمه ثورة أدت إلى التجائه إلى وادي آش وإلى سجن وزيره ابن الخطيب، ومصادرة أملاكه، وحرق كتبه، والفضل في نجاتهما، يعود إلى أبى سالم إبراهيم المريني، الذي بعث بشفاعته فيهما

إلى الحكام الجدد بغرناطة، الذين استجابوا لشفاعته أملا في استمرار المساعدة المغربية للأندلس، وتوطيدا للصداقة القديمة بين البلاطين، غرناطة، وفاس.

فاستقر الغنى بالله بعاصمة المرينيين (فاس)، تحت رعاية بالغة من سلطانها، أما ابن الخطيب فقد فضل الاستقرار بمدينة "سلا" التي تقع قرب رباط الفتح، العاصة المغربية اليوم، وهناك ألف ابن الخطيب عددا كبيرا من مؤلفاته، التاريخية منها والأدبية.

يقول ابن الخطيب "ثم ترجح لدى السكون إلى العافية، والتمتع بالبقية، فجنحت إلى السكنى بمدينة سلا، حيث طنبت الحرمة رواقها، وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدس أسواقها[1]، تجرى على النعم، ويظللني المجد والكرم، فلا أعد من عمري إلا أيام مقامي بها، وسكناي فيها، تفرغا إلى ما أريده من دنيا وآخرة، وعافية شاملة، وجنة عاجلة".[2]

ابن الخطيب يهنئ أبا سلم بفتح تلمسان

لم تمض على إقامة ابن الخطيب بسلا عدة أشهر حتى وصلت إليه أخبار استيلاء أبي سالم المريني على عاصمة الزيانيين، تلمسان، هذه المدينة التي تعرضت للغزو والسلب والنهب ثلاث مرات في حوالي ثلث قرن من الزمن، فقد احتلها لأول مرة أبو الحسن المريني بعد معارك طاحنة، ومحاصرة قاسية، عام 737هـ. ثم استردها أبو حمو موسى الزياني على اثر وفاة أبي عنان في 27 في ذي الحجة عام 759هـ. فدخل تلمسان في أوائل ربيع الأول عام 760هـ. وبعد سبعة عشر

---

1. يشير إلى مقبرة "شالة" حيث دفن السلطان الكبير أبو الحسن المريني.
2. ابن الخطيب، أعمال الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، المنشور تحت عنوان "تاريخ اسبانيا الإسلامية" ص : 313، تحقيق – ا – ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط، بيروت، 1956.

شهرا نرى أبا سالم يجهز الجيوش لغزو تلمسان من جديد، وفي اليوم السادس من شعبان عام 761هـ. تم له الاستيلاء على عاصمة الزيانيين، فكانت له كما كانت لأبيه وأخيه من قبل، ولكنها لمدة قصيرة جدا. وعلى اثر هذا الحدث بعث ابن الخطيب رسالة تهنئة، وأتبع الرسالة بقصيدة نونية رائعة، بدأهما مهنئا بالفتح، وطالبا العون على استرجاع الملك المغضوب بغرناطة، ومستشفعا بأبي سالم لدى الثائرين بالأندلس لإعادة أملاكه المصادرة، منوها بمكانة تلمسان الإستراتيجية، وما قاسى أبوه من الأهوال، ودفع من الأموال والرجال، من أجل احتلالها، وافتكاكها من بني عبد الوادي. يقول ابن الخطيب: "مولاي فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الزمان والإعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدوة أولى الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار...

فتح تلمسان الذي قلد المنابر عقود الابتهاج، ووهب الإسلام منيحة النصر غنية عن الهياج، وألحف الخلق ظلا ممدودا، وفتح باب الحج وكان مسدودا، وأقر عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياما وقعودا، وأضرع بسيف الحق جباها أبية وخدودا، وملككم حق أبيكم الذي أهان عليه الأموال، وخاطر من دونه الأهووال".

وفيها يتعرض ابن الخطيب إلى اعتصامه بقبر والده أبي الحسن، يطلب له الرحمة والمغفرة ويتوسل به لدى نجله أبي سالم ليشفع له في رد أملاكه المغصوبة ظلما. حيث يقول: "وضمن لي حسن العقبى التزاما واشتراطا، وقد عقد البصر بطريق رحمتكم المنتظرة المرتقبة، ومد اليد إلى لطائف شفاعتكم التي تتكفل بعتق المال كما تكلفت بعتق الرقبة".

فالرسالة كما نرى سياسية، اتخذ ابن الخطيب فتح تلمسان مناسبة لعرض مطالبه، وسلما لقضاء مآربه. وأما القصيدة فهي تقع في مائة وخمسة أبيات، استهلها بالتهنئة ثم انتقل إلى وصف تلمسان، وما تحتله من مكانة مرموقة بين الأقطار والبلدان :

أطاع لساني في مدحيك إحساني ... وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

فأطلعتها تفتر عن شنب المنى[1] ... وتسفر عن وجه من السعد حسانى

كما أبتسم النوار عن أدمع الحيا ... وحف بخد الورد عارض نيسان

كما صفقت ريح الشمال شمولها ... فبان ارتياح السكر في غصن البان

تهنئك بالفتح الذي معجزاته ... خوارق لم تذخر سواك الإنسان

ولله عينا من رآها محلة ... هي الحشر لا تحصى بعد وحسبان

وتنور عزم فار في اثر دعوة ... فعم الأقاصي والأدانى بطوفان

عجائب أقطار ومألف شارد ... وأقلاد آفاق وموعد ركبان

إذا ما سرحت اللحظ في عرصاتها ... تبلد منك الذهن في العالم الثاني

جناحان والنصر العزيز اهتصاره ... إذا انتظمت بالقلب منها جناحان

فمن سحب لاحت بها شهب القنا ... ومن كتب بيض بدت فوق كثبان

مضارب في البطحاء بيض قبابها ... كما قلبت للعين أزهان سوسان

---

1. يقال ثغر شنيب : إذا كان ذا أسنان حسنة بيضاء، رائحتها طيبة، والمشانب : الأفواه الطيبة الجميلة.

وما إن رأى الراؤون في الدهر قبلها قرارة عزز في مدينة كتان

تفوت التفات الطرف حال انتقالها كأنك قد سخرت جن سليمان

فقد أطرقت من خوفها كل يعة وطأطأ من أجلالها كل إيوان

وبعد المدح، ووصف الجيش وسلاحه، ينتقل إلى استعراض أيادي أبي سالم عليه، وما جناه عليه الدهر، ثم حنينه إلى وطنه، ومهد أحبابه :

أمولاي حبي في علاك وسيلتي ولطفك بي دأبا بحمدك أغراني

فلا جحد ما خولتني من سجيتي ولا كفر نعماك العميمة من شأني

ومهمما تعجلت الحقوق لأهلها فإنك مولاي الحقيق وسلطاني

وركني الذي لما نبا بي منزلي أجاب ندائي بالقبول وآواني

وعالج أيامي وكانت مريضة بحكمة من لم ينتظر يوم بحران[1]

فأمنني الدهر الذي قد أخافني يقبل أرداني ومن بعد أرادني[2]

وأزعجني عن منشئ ومبوئ ومعهد أحبابي ومألف جيراني

بلادي التي فيها عقدت تمائمي وجم بها وفري وجل بها شأني

تحدثني عنها الشمال فتنثني وقد عرفت مني شمائل نشوان

---

1. البحران : التغير الذي يحدث للعليل فجأة في الأمراض الحمية الحادة، ويصحبه عرق غزير، وانخفاض سريع في الحرارة. المعجم الوسط، مادة : بحر.
2. أرداني الأولى بمعنى ثيابي، والثانية بمعنى قتلني، وفي البيت جناس تام.

وآمل أن لا أستفيق من الكرى إذا الحلم أوطاني بها ترب أوطاني

تداركت مني بالشفاعة منعما وقدفت ما ألفيت من يتلافاني

فلولاك بعد الله يا ملك العلا بريا رماه الدهر في موقف الجاني[1]

العودة إلى الأندلس

لم ينعم ابن الخطيب طويلا بتلك الجنة العاجلة، والعافية الشاملة، التي كان يحياها بمدينة سلا، فقد وصلت إليه أخبار من سلطانه "محمد الغني بالله" بالأندلس، يعلمه فيها باستعادة ملكه، والقضاء على خصومه، ويطلب منه الإسراع في الالتحاق به، ليتسلم مهام وزارته من جديد، فما على ابن الخطيب إلا أن يقلع عن الهدوء والراحة، ويلتحق بعاصمة حكومته، وتسند إليه رئاسة الوزارة، ويلقب لأول مرة بذي الوزارتين: وزارة السيف والقلم، ويصبح الرجل الأول في الدولة لحوالي عشر أعوام.

"وخلا لابن الخطيب الجو، وغلب على هوى السلطان، ودفع إليه تدبير الدولة، وخلط بنيه بندمائه، وأهل خولته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد... وانصرفت إليه الوجوه، وعلقت عليه الآمال، وغشى بابه الخاصة والكافة، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته، فتفننوا في السعايات فيه وقد صم السلطان عن قبولها. ونمى الخبر بذل إلى ابن الخطيب، فشمر عن ساعده في التقويض عنهم".[2]

---

1. أنظر الرسالة والقصيدة في *"نفاضة الجراب في علالة الاغتراب"*، لابن الخطيب، ص: 91-101، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن، *"كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر"*، م7، ص: 694 — منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968.

وهكذا كثر حساد ابن الخطيب، وكل ذي نعمة محسود، فشعر بهذه العيون التي ترمقه بحقد دفين، وبغض كمين، وأدرك ما يحاك ضده في الخفاء من دسائس ومؤامرات فأئلمت في عينيه الدنيا، وضاقت عليه الأرض مع رحبها، ولعلنا لا نجد عبارات تصف لنا هذه الفترة من حياته الحرجة أحسن مما سطرته يداه، وأملاه فكره، ودبجه يراعه.

"وصرت أنظر إلى الوجوه؛ فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات، فأتبين الحسائف في لغاتها، والصبغة في كل يوم تستحكم، والشر يتضاعف، ونعمة الولد تطلق لسان الحسود، وشبع الكلاب المطيغة في تهيج حسائف النمور الجائعة والأسود، والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنون في الإطراء والمديح، وتحسين القبيح، والمحالات في الغي، والتقرب بالسعي، أنظر إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون، والمغامرة بالجفون، والمخاطبة باللغوز، فإذا انصرفوا صرف الله قلوبهم، فقلبوا الأمور، ونقلوا العيوب، وأفسدوا القلوب، وتعللوا بالأحلام، وقواطع الأحكام".[1]

ابن الخطيب بتلمسان

في مثل هذا الجو المشحون بالدسائس والمؤامرات، قرر ابن الخطيب مغادرة الأندلس والالتجاء إلى المغرب العربي، حيث الهدوء والأمن على النفس، والمال، والولد، فطلب من سلطانه السماح به بأداء فريضة الحج، وزيارة الديار المقدسة، حسبما اشترط عليه يوم قدومه من المغرب، ولكن الغني بالله، يماطله مرة، ويمانعه أخرى، والشر يتضاعف كل يوم، والأحقاد تزداد، وأخذ يرى الأخطار محدقة به من كل جانب، فذهبت ثقته في الأصحاب والطلاب، وصار يسهر الليل، ويترقب الشر بين لحظة وأخرى.

---

1. ابن الخطيب، *أعمال الإعلام*، ص : 316.

تلون إخواني علي وقــد جنت علي خطوب جمة ذات ألوان
وما كنت أدري قبل أن يتنكروا بأن خواني كان مجمـع خواني
كانت وقد حم القضاء ضائعي علي، بما لا أرتضى شر، أعواني

فقرر الخروج من هذه البلاد الظالم أهلها، والالتجاء إلى تلمسان، حيث السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز ينتظره بكل حفاوة وصدق وأمان، ومن هناك يشد الرحال إلى الديار المقدسة، لأداء فريضة الحج، وسنة الزيارة.

"وقلت أحد نفسي، وأقضي فرضي، وأشغل الناس بغيري، وأكون بعد ذلك محكما من أمري".[1]

وفعلا خرج ابن الخطيب من الأندلس لآخر مرة في غرة جمادى الأخيرة من عام 772هـ. والتحق بتلمسان، حيث تلقاه أبو فارس بالترحاب والتكريم، ثم التحق به أهله، بطلب من السلطان المريني، وتحت رعايته، وبدأ ابن الخطيب يستعد للرحلة إلى المشرق.

وفكر في هدية يحملها معه إلى إخوانه علماء المشرق وأدبائه فلم يجد أفضل من الأدب، وأعز من بنات القرائح، وولائد الأفكار، فعكف على التأليف، وشر في جمع المعلومات لكتابه القيم".

"الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة" هذا الكتاب الذي يعد بحق تحفة أدبية رائعة، ترجم فيه لثلاثة ومائة من الأدباء، قلما نجد لهم ترجمة في الكتب الأدبية الأخرى المعاصرة منها، وغير المعاصرة.

1. ابن الخطيب، أعمال الإعلام السابق، ص : 317.

وقد قسم الكتاب إلى أربع طبقات:

أ. طبقة الخطباء الفصحاء، والصوفية الصلحاء (1 - 19).

ب. طبقة المقرئين والمدرسين، والممهدين لقواعد المعارف والمؤسسين (20- 30).

ت. طبقة القضاة أولى الخلال المرتضاة (31 - 54).

ث. طبقة من خدم أبواب الأمراء من الكتاب والشعراء (55 — 103).

وفي مقدمة الكتاب، يشعرنا ابن الخطيب بأنه قد طلق الدنيا، ونفض يديه من أوطارها، ونبذ السياسية وأوزارها، والمسؤوليةوأعباءها، حيث يقول :

"أما بعد فإنني لما استوفيت أوطاري، واستكملت أدواري، وتشوفت ظلمي إلى مطالع أنواري، واستوعبت من صحبة المغرب حصتي، وختمت بالدعاء قصتي، ونزلت عن منصتي، وابتلعت غصتي، ومن بعد أن لبست دنياه فأخلقت، وبنيت بمبانيه المشيدة وطلقت... واستعادتني الدنيا فتجنيت وتعللت، وأخبرتها أني قد مللت وأملت..."[1].

وفي تلمسان ألف ابن الخطيب كتاب "المباخر الطبيعية في المفاخر الخطيبية" قدمه للسلطان المريني عبد العزيز، ذكر فيه نباهة سلفه، وما لهم من المجد التليد، والمكانة المرموقة على مر التاريخ، وكان قصده الرد على أعدائه بالأندلس، المجاهرين له بالعدوان، والقادحين في فخر سلفه، ونباهة أصله ونجاره.[2] كما ألف بتلمسان كتابا آخر، يعتبر طرفة أدبية نادرة، أسماه، خلع الرسن في التعريف بأحوال ابن الحسن"

---

1. ابن الخطيب، *الكتيبة الكامنة*، ص : 27، تحقيق الدكتور إحسان عباس نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان.
2. المقري، *نفح الطيب*، ج 7، ص : 108.

جمع فيه نوادر وحكايات مضحكة، عن القاضي النباهي، الذي أفتى بحرق كتبه، ومصادرة أملاكه، واتهمه بالزندقة والمروق من الدين والنيل من ذات الرسول الكريم.[1]

وقد ذكر الأستاذ الكريم الفقيد محمد بن أبي بكر التطواني أن صديقا له بمراكش أعلمه بإطلاعه على هذا الكتاب ضمن مجموع يملكه القاضي السيد ابن الحسن.[2]

كما أن الكتاب قد أطلع عليه المقري، ونقل منه قول ابن الخطيب في وصفه : "أنه لا شيء فوقه في الظف والاستظراف، يسلى الثكالى، ونستغفر الله تعالى".[3]

أما كتاب "المباخر الطبيعية" فلم يعثر له على أثر لحد الآن، وهو لم يحرق بالتأكيد، لأنه ألف بتلمسان، لا بالأندلس حيث نال إنتاجه التلف والإحراق، وقد ألفه ابن الخطيب قبل الكتيبة الكامنة، لأننا نراه يورد لنا مقطوعات قالها أحد أصدقائه تقريظا للكتاب عند إطلاعه عليه، أو إهدائه إليه، فقال عند الحديث عن القاضي عبد الله أبي محمد بن عبد الله بن خديم اللخمي الغرناطي، وأنشدني لما صنفت "المباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية" جملة مقطوعات منها قوله:

جميع المباخر محتاجة سواي لتجديد نار وطيب

بجمر الذكاء وطيب الثناء غنيت انتسابا إلى ابن الخطيب

---

1. أبو الحسن النباهي، (تاريخ قضاة الأندلس) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ص : 202. المكتب التجاري بيروت.
2. الفقيد التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، ج 2، ص : 47، دار الطباعة كريماديس، تطوان 1909.
3. نفح الطيب، ج 7، ص : 108.

وقال فيها أيضا:

مباخر الطيب لها غاية من بعدها تحتاج تجديد طيب

وهذه تعبق طيبا مستى تعزى إلى منشئها ابن الخطيب[1]

نهاية ابن الخطيب

لم يستقر ابن الخطيب طويلا بتلمسان، بسبب وفاة السلطان عبد العزيز المريني وانتقال الوزير الوصي إلى مدينة فاس، التي اتخذها مقرا للدولة، وصحب معه ابن الخطيب، وحفظ له جميع امتيازاته، وامتنع من تسليمه لحكام غرناطة، الذين أعادوا الكرة تلو الأخرى في إقامة الحد على ابن الخطيب أو تسليمه لينفذ فيه حكم الشرع والقانون، هذا الامتناع أدى إلى تشجيع المطالبين بعرش المرينيين من السلطان الغرناطي واشترط هذا الأخير من الثائرين على الوزير الوصي، ابن غازي، تسليم ابن الخطيب، حالما يتم لهم النصر، وفعلا، انتهت بانتصار السلطان الجديد "أبي العباس" ودخوله العاصمة وإلقاء القبض على ابن الخطيب، وتقديمه للمحاكمة، بحضور ابن زمرك، فوجهت إلى السجين تهم ظاهرها، الزندقة والمروق من الدين، وباطنها، السعي للقضاء على دولة بني الأحمر، وإحلال المرينيين محلها، فأفتى بعض الفقهاء بقتله، وفي الليل طرق عليه السجن جماعة من الأوغاد، حضروا من الأندلس، فقتلوه خنقا، وأخرج شلوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق، "ثم أصبح من الغد على حافة قبره طريحا، وجمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فاحترق شعره، واسود بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته".[2]

يتبع

---

1. *الكتيبة الكامنة*، ص : 145.
2. المقري، نفح الطيب، ج 7، ص : 39.